العلم والمال لا يجتمعان

كم عالم عالٍ عاقت مذاهبهُ وجاهل جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا
هذا الذي حير الافهام قاطبة وصيّر العالم النحرير زنديقا

البيت الاول وصدر البيت الثاني من المسلمات التي قلَّ من يماري فيها وترى معناها وارداً نظماً ونثراً في العربية وفي كثير من اللغات

يقوم عالم يبحث ويحقق ايامًا وسنين حتى يكتشف حقيقة علمية ثم لا ينتفع بها نفعاً ماديًّا وغاية ما ينالهُ منها ان يقال انهُ هو المكتشف وقد يقضي بقية عمره يجادل ويناضل عالماً آخر ينازعهُ الفخر الادبي من هذا الاكتشاف .ويقوم رجل مالي او تاجر اجرائي يقبض على ذلك الاكتشاف ويستعملهُ ويكتسب منهُ الالوف

اخبرنا رجل اميركي من اصحاب معامل المصابيح الكهربائية ان رجلاً من العمَّال في معملهِ استنبط مصباحاً صار من اكثر المصابيح الكهربائية استعمالاً واوفرها ربحاً. فقلنا لهُ وماكان جزاؤهُ قال بقي عاملاً عندنا وجعلناهُ مديراً للنوع الذي يصنع ذلك المصباح ونسبناهُ اليهِ. اي انهُ نال جزاء ادبيًّا وشيئاً طفيفاً من الجزاء المادي .ولكن نصيبهُ خير من نصيب من لا ينال شيئاً كلسر اوليفر لدج الذي اكتشف مبدأ التلغراف اللاسلكي ولم يعرف كيف يستعملهُ فاستفاد منهُ مركوني اسماً ومالاً واما السر اوليفر لدج فانشغل عنهُ بالبحث في مخاطبة ارواح الموتى

ونحن نعرف رجلاً في هذا العقار من ابرع الناس في معرفة اللغات الاوربية والعلوم الرياضية وله الآراء الصائبة في التجارة ولكنهُ لم يستفد من علومهِ ومعارفهِ وآرائهِ عشر معشار ما استفاد منها تجَّار استخدموهُ ويكادون يكونون اميين

ذكرنا في بعض السنين الماضية ان الدكتور هنكن اكتشف مصلاً لمقاومة مكروب الكوليرا وطريقة للوقاية منهُ . ونرانا الآن ان طريقتهُ للوقاية من الكوليرا استعملت في بلاد الهند فوقت كثيرين من هذا الوباء الوبيل وهي بسيطة فان مكروب الكوليرا يصل الى ماء الشرب ومنهُ الى جسم الانسان فاكتشف الدكتور هنكن انهُ اذا وُضع في حياض الماء وآباره قليل من برمنغنات البوتاسيوم هلك ٩٠ فيها من مكروب الكوليرا . اكتشف هذا الاكتشاف النافع والمرجح انهُ

لم يُجازَ عليهِ لا ماديًّا ولا ادبيًّا . ولهُ كتاب صغير طل فيهِ ما « سرّ الافهام قاطبة » اي الامر الوارد في البيتين اللذين صدَّرنا بهما هذه المقالة . وتطبيقهُ هذا ينطبق على ما ابناهُ مراراً وهو ان لعقل عقلان عقل ظاهر يبني احكامهُ على العلم والاستقراء وعقل باطن يبني احكامهُ على ما فيهِ من المعارف البديهية . وعندهُ ان احكام العقل الظاهر بطيئة في صدورها لما تقتضيهِ من البحث والتحقيق والتمحيص واما احكام العقل الباطن فبديهية سريعة لا تقتضي شيئاً من اعمال النظر . وافعال العقل الباطن ظاهرة في الذين يفلحون من التجار وارباب الاعمال . قال «قال لي احد التجار مرةً ان اهم الاعمال التي عملها ابدى حكمهُ فيها بعد نظر لا يزيد على عشر ثوانٍ وقد ذكرت ذلك لمدير شركة كبيرة من الشركات المفلحة فقال لي انهُ هو يبدي حكمهُ في ثانية من الزمان . فقلت لهُ ألا تظن ان ذلك من فعل العقل الباطن فقال انني لا اعرف معنى هذه الكلمة . وهذا شأن اكثر الذين يفلحون في الاعمال ويرزقون الاموال الطائلة وسبب ذلك ان الذين يعتمدون على عقلهم الظاهر واساليبهِ المنطقية في تمحيص الادلة للوصول الى النتائج يقلون الاعتماد على عقلهم الباطن وما فيهِ من البديهيات . وعلى الضد من ذلك الذين علومهم قليلة يضطرون ان يعتمدوا على بديهياتهم وما حصلوهُ بالاختبار الطويل فصار فيهم من البديهيات »

قيل ان اللورد منسفيلد الذي كان وزير الحقانية في انكلترا نصح مرةً احد اصدقائهِ ان يحكم حسبما يتراءى لهُ ولا يذكر الاسباب (الحيثيات) التي قادتهُ الى هذا الحكم . وعلل ذلك بقولهِ «انك اذا فعلت ذلك فالراجح ان حكمك يكون صحيحاً ولكن الاسباب تكون غير صحيحة » . والظاهر ان سبب ذلك ان صديقهُ لم يكن متمرناً في صدور الاحكام ولو كان متمرناً لصارت اسبابهُ صحيحة كاحكامهِ

ومن رأي الدكتور هنكن ان اساليب التعليم المتبعة الآن تقوي العقل الظاهر فيهمل صاحبهُ بديهياتهِ وانهُ اذا قلَّ الاعتماد على تقوية العقل الظاهر اي على قوة الاستدلال العلمي المنطقي كثر الاعتماد على العقل الباطن اي على البديهيات ويظهر ذلك من نجاح طائفة الكويكر فانها نجحت في اعمالها الصناعية والتجارية نجاحاً عظيماً عند اول نشأتها حتى صار ذلك صفة راسخة تنتقل الى اولادها بالارث وصار اسلوب التربية والتعليم عندهم يقود اليها لانهُ لا يوجب الاعتماد على الادلة العقلية فاذا اراد احد رجال الكويكر ان يحكم في مسألة مهمة فانهُ يلجأ الى

الصلاة وطلب الالهام بدلاً من ان يبحث في مقدمات تلك المسألة ونتائجها بحثاً علمياً منطقياً . فاذا نظرنا الى ذلك نظراً عالمياً محضاً قلنا ان من كان كذلك لا يبعد ان تتنبه بديهياتهُ وتشير عليهِ بما يجب عملهُ . ويحدث مثل هذا للمجوسي والوثني وذلك دليل على انهُ ليس من قبيل الالهام الالهي . والفعل للعقل الباطن ولو نسبهُ كل منهما الى معبودهِ . ومن عادات الكويكر انهم يربون اولادهم على العمل بما يخطر لهم وعدم العدول عنهُ فاذا قال ولد اني اريد قطعة من الحلوى لم ينهوهُ عنها لاعتقادهم انهُ قال ما قال بالهام الهي ولو كان فيهِ ضررهُ اما هو فتقوى فيهِ عادة العمل بما يخطر لهُ وتضعف قوة كبح الخواطر والاهواء والاعتماد على العقل

يحكى ان احد الاميركيين اشتغل بالمضاربة في البورصة فجمع ثروة كبيرة . ولما حضرتهُ الوفاة دعا اليهِ ابنهُ وقال لهُ اني مرشدك الى الطريقة المثلى التي كنتُ اجري عليها فجمعتُ هذه الثروة حتى تتبعها فتحفظ ثروتك وتزيدها وهي ان تبحث عن كل الاسباب التي تأول الى رفع الاسعار او هبوطها وتعمل على ضد ما تشير بهِ

قد تكون هذه القصة موضوعة ولكن مغزاها صحيح وهو ان الاعتماد على العقل الباطن اي على بديهيات الانسان اصح غالباً من الاعتماد على العقل الظاهر اي على التفكير والتحليل لان البديهيات نتائج كلية مكتسبة بعد طول الاختبار او واصلة بالارث . واما ما يصل اليهِ الانسان بعد الاستقراء واعمال النظر بضع دقائق او ساعات فقلما يكون كاملاً حتى ينتج نتيجة صحيحة . مثال ذلك سعر القطن اليوم فانهُ يبنى على فواعل كثيرة بعضها يأول الى رفعهِ وبعضها الى خفضهِ فاذا اراد غير الخبير ان يجمعها كلها ويعارض بعضها ببعض من حيث قيمتها العددية حتى يصل الى نتيجة صحيحة لم يستطع ذلك في ساعات كثيرة وقد لا يستطيعهُ ابداً اما الخبير فان عقلهُ الباطن ينظر فيما هو مذخور فيهِ من المعارف في لحظة من الزمان ويصل الى النتيجة المزمومة حالاً وهذا شأن الانسان في كل اعمالهِ . يمسك الكاتب الخبير قلمهُ ويكتب ساعة وساعتين في موضوع يعلمهُ وبديهياتهُ تملي عليهِ من غير توقف واما غير الخبير في ذلك الموضوع فيقضي ساعات يجمع المواد ويعصر دماغهُ فلا يصل الى مرادهِ . ومن يصرف همهُ الى مطلب من المطالب قلما يفلح في مطلب آخر ولذلك قلما يفلح في طلب المال من همهُ مصروف الى طلب العلم وما أحسن ما قيل طالب علم وطالب مال لا يجتمعان